

## الجسور كشرايين حيوية في صدر الإسلام

رجاء انجم

دكتور مدرس، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة اللاذقية، اللاذقية، سوريا

[raja.enjam@latakia-univ.edu.sy](mailto:raja.enjam@latakia-univ.edu.sy)

### المخلص

يتناول البحث بالتحليل الدور الحيوي للجسور في صدر الإسلام، معتبراً إياها أكثر من مجرد منشآت معمارية لتجاوز العوائق المائية، بل مقارباً لها باعتبارها "شرايين" استراتيجية أوجدتها الدولة الناشئة وحافظت عليها لضمان ديمومة حركتها السياسية والحربية والاقتصادية، ويسعى البحث، إلى الكشف عن الآليات التي تحوّل بها البعد المادي الجغرافي، إلى أداة فاعلة في تشكيل الجغرافيا السياسية والاجتماعية للدولة الإسلامية في مرحلة التأسيس الممتدة منذ بدايات الفتوح خارج الجزيرة العربية وحتى نهاية العصر الأموي، ويستند التحليل على النصوص التاريخية والجغرافية، محاولاً استنتاج الإشارات العابرة التي تذكر الجسور في سياقات متباينة لرسم صورة متكاملة عن وظيفتها، فالجسور لم تكن عنصراً ثانوياً في التخطيط الحربي، بل كانت جزءاً جوهرياً من التفكير الاستراتيجي، حيث أدركت القيادة الحربية الإسلامية أهمية التحكم في نقاط العبور، فتحوّلت السيطرة على الجسور أو إنشاؤها السريع إلى عنصر حاسم في النجاحات الحربية، ويرصد البحث التفاعل بين الإدارة السياسية والكفاءة التقنية، ويقدم رؤية تجسد أوضاع الجسور في الحضارية الإسلامية المبكرة، كأداة عملية جسّدت رؤية الدولة وساهمت في تشكيل واقعها المادي والاجتماعي.

**الكلمات المفتاحية:** عصر الرسول والخلفاء الراشدين، العصر الأموي، الإدارة الحربية.

ورد للنشر بتاريخ: 23 / 2 / 2026

قبل للنشر بتاريخ : 30 / 6 / 2026



## Bridges as vital arteries in the early days of Islam

**Rajaa Enjam**

Lecturer, Department of History , Faculty of Arts and Humanities, Latakia University, Latakia, Syria

[raja.enjam@latakia-univ.edu.sy](mailto:raja.enjam@latakia-univ.edu.sy)

### Abstract

This research analyzes the vital role of bridges in early Islam, considering them more than mere architectural structures for overcoming water obstacles. It approaches them as strategic "arteries" established and maintained by the nascent state to ensure the continuity of its political, military, and economic activities. The research seeks to uncover the mechanisms by which the physical geographical dimension transformed into an effective tool in shaping the political and social geography of the Islamic state during its formative period, extending from the beginnings of the conquests beyond the Arabian Peninsula until the end of the Umayyad era. The analysis is based on historical and geographical texts, attempting to interpret passing references to bridges in diverse contexts to paint a comprehensive picture of their function. Bridges were not a secondary element in military planning, but rather an essential part of strategic thinking. The Islamic military leadership recognized the importance of controlling crossing points, and thus, control of bridges or their rapid construction became a decisive factor in military successes. The research examines the interaction between political administration and technical efficiency, and presents a vision that embodies the status of bridges in early Islamic civilization as a practical tool that reflected the state's vision and contributed to shape its material and social reality.

**Keywords:** The era of the Prophet and the Rightly Guided Caliphs, the Umayyad era, military administration.

**Received:** 23/02/2026

**Accepted:** 30/06/2026



© 2026 Author(s). This article is published under the Open Access License CC BY-NC-SA 4.0

## المقدمة:

يندرج هذا الموضوع ضمن حقل الدراسات التاريخية الحضارية التي لا تنتظر إلى المادة الأثرية أو الجغرافية ككيان جامد، بل كفاعل تاريخي مؤثر في صناعة الأحداث وصياغة ملامح المجتمعات والدول، فالجسور، بتلك البنية الحجرية أو الخشبية الظاهرية، لم تكن مجرد منشآت معمارية غايتها تسهيل اجتياز العوائق المائية، بل كانت مؤسسات سياسية وحربية واقتصادية متكاملة، تجسد رؤية الدولة وتطلعاتها، وتكشف عن آليات اشتغال سلطتها ونفوذها عبر المجال الجغرافي الذي تسيطر عليه، ففي حقبة صدر الإسلام التي شهدت تحولات جيوسياسية هائلة، امتدت فيها رقعة الدولة من الجزيرة العربية إلى أقصى بلاد الشام والعراق ومصر وفارس، برزت الحاجة الماسة إلى شبكات اتصال فعالة وآمنة، وهنا، يتجلى دور الجسر ليس كأداة عبور سلبية، بل كشريان حيوي، يشبه في وظيفته الشرايين في الجسد، ينقل عناصر القوة - الجنود، والمؤن، والرسائل، والخراج - ويضمن استمرارية حركة الحياة في كيان الدولة الناشئة، فهو نقطة وصل استراتيجية تخضع للرقابة والحماية، وتتحول إلى بوابة للفتوحات، وخط دفاع أول في وقت الأزمات، وممر إلزامي للقوافل التجارية، يستعرض من خلاله الخليفة أو والي هيئته وسلطته، ويؤمن به تدفق الموارد، إن دراسة الجسور في ذلك العصر، بتلك الرؤية، هي في جوهرها دراسة لتشريح السلطة الإسلامية في لحظة تأسيسية فريدة؛ كيف تفاعلت الإدارة السياسية الجديدة مع التضاريس، وكيف حولت التحديات الجغرافية إلى فرص لتعزيز الأمن والسلطان، وكيف جسدت تلك المنشآت الفكرة عن الطريق الآمن الذي هو رمز من رموز العدل والحكم الرشيد في التراث السياسي العربي، كما أن هذا البحث يفتح نافذة على حوار عميق بين الجغرافيا والتاريخ، إذ يصبح النهر، الذي كان حدوداً طبيعية وفاصلاً بين مناطق النفوذ، عبر الجسر، مجرى للتوحيد والاندماج تحت سلطة واحدة، فذلك التحول لم يكن لينجح لولا وجود إدارة سياسية موحدة، وقدرات تنظيمية وفنية استفادت من تراث الأمم السابقة وأضافت إليه الطابع الإسلامي المتميز، لذا، فإن تتبع مسار جسر معين، مثل جسر تكريت أو جسر الفرات أو غيرهما، هو في الحقيقة تتبع لمسار الحملات الحربية، ونمو المدن، وحركة التجارة والبريد، وانتقال العلم، بل وحتى انتشار المذاهب الفقهية، إن تلك الجسور كانت شواهد صامته على أعظم رحلة تحول في تاريخ المنطقة، شاهدة على عبور الجيوش لتحقيق الفتح، وعبور السلطة لنشر النظام، وعبور الحضارة ذاتها لتؤسس لعالم جديد، وهذا ما سيحاول البحث تفكيكه وتحليله، من خلال النظر في النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية، واستنتاج ما تحويه من إشارات قد تبدو عابرة، ولكنها مجتمعة ترسم خريطة حيوية لشبكة الاتصالات التي حملت على ظهرها مشروع دولة الإسلام.

## أهمية البحث:

تتبع أهمية البحث من كونه يلامس مجالاً دراسياً غير مطروق بكثافة، إذ يركز على المنشآت المعمارية الحربية والحضارية كفاعل تاريخي وليس كخلفية ثابتة، فهو يساهم في إثراء الدراسات التاريخية الحضارية من خلال ربط التطور العمراني بالمشروع السياسي والحربي للدولة الإسلامية الناشئة، كما يسلط الضوء على دور العمارة والإدارة في ترجمة سياسات السلطة المركزية إلى واقع ملموس على الأرض، مما يكشف

عن جانب تطبيقي لفكرة الدولة في صدر الإسلام، بالإضافة إلى ذلك، يقدم البحث مدخلاً لفهم آليات السيطرة على المجال الجغرافي الشاسع وتسييره، وهو ما يمثل إضافة للمعرفة في حقل التاريخ الحربي والإداري الإسلامي.

### أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

1. تحليل الدور الاستراتيجي والحربي للجسور في دعم حركة وتحركات الجيوش الإسلامية خلال مراحل الفتح والدفاع في صدر الإسلام.
2. الكشف عن الوظيفة السياسية والإدارية للجسور كرموز لهيبة السلطة وكأدوات لفرض الأمن وضبط حركة العبور وحماية الموارد.
3. رصد أثر وجود الجسور أو غيابها على التخطيط الحربي ومسار الفتوحات واستقرار الأمن الداخلي.
4. فهم العلاقة التفاعلية بين القرار السياسي المركزي والحاجة العملية لإنشاء أو صيانة تلك الجسور، وإسهاماتها في تعزيز الاتصال بين أقاليم الدولة.

### مشكلة البحث:

تكمن المشكلة الرئيسية في أن معظم الدراسات التاريخية التي تناولت الجسور في العصر الإسلامي قد اقتصرت على وصفها المعماري أو ذكرها العابر في سياق الأحداث، منفصلة عن التحليل العميق لوظيفتها الاستراتيجية كأداة للسلطة، وهذا التناول السطحي يغيب الدور الحيوي للجسور في تمكين حركة الجيوش، وترسيخ النفوذ السياسي، وتسهيل إدارة الدولة، وتحويلها من مجرد منشآت إلى شرايين تنقل مقومات القوة والسلطان، وبالتالي، فإن المشكلة تتمثل في الفجوة المعرفية حول الدور الاستراتيجي المتكامل للجسور كأدوات جيوسياسية فعالة في تشكيل وتماسك الدولة الإسلامية المبكرة.

### الفجوة البحثية:

كيف مثلت الجسور شرايين حيوية لعبور الجيش وتجسيد سلطة الدولة في صدر الإسلام؟

ما هي الأدوار الحربية المباشرة وغير المباشرة التي أدتها الجسور في حملات الفتح والمواجهات الدفاعية؟

كيف استُخدمت الجسور كأدوات لإدارة الدولة وفرض سيطرة السلطة المركزية على الأقاليم البعيدة؟

ما هي الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على إنشاء الجسور واستقرار حركة العبور من خلالها؟

كيف عكست سياسة بناء وصيانة الجسور الأولويات السياسية والاستراتيجية للخلفاء والأمراء في تلك الحقبة؟

ما هي مصادر تمويل وإنشاء ومراقبة تلك الجسور، وماذا يكشف ذلك عن طبيعة الإدارة الإسلامية المبكرة؟

### منهج البحث:

ستعتمد الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي كمنهج رئيسي، وذلك من خلال جمع المادة التاريخية من المصادر الأولية المتنوعة (كتب التاريخ العام، ومعجم البلدان، والطبقات، والسير، والكتب الجغرافية العربية الإسلامية القديمة)، وتفتيتها ونقدها نقداً داخلياً وخارجياً، ثم يتم تحليل تلك البيانات وتحليلها لاستنباط الأنماط والعلاقات السببية، كما ستستعين الدراسة بـ المنهج الوصفي لوصف مواقع الجسور وعلاقتها بالطرق والممرات الاستراتيجية والمدن، وكذلك في النظر إلى شبكة الجسور والطرق كنظام متكامل يخدم أهداف النظام السياسي والحربي الأكبر، وسيتم تكامل هذه المناهج لتقديم رؤية شمولية تحليلية تربط بين البعد المادي "الجسر" والبعد الوظيفي "السلطة والجيش".

### صعوبات البحث:

واجهت الدراسة عدة صعوبات منهجية ومادية، تمثل أبرزها في طبيعة المصادر التاريخية نفسها، إذ إن المعلومات المتعلقة بالجسور جاءت غالباً بشكل متناثر وإشارات عابرة ضمن سياقات حربية أو جغرافية، مما استدعى جهداً استقرائياً كبيراً لتجميعها وتحليلها، كما شكل ندرة الدراسات الأكاديمية السابقة التي تناولت الجسور كفاعل استراتيجي وليس كوصف معماري، عقبة أمام بناء إطار نظري محكم. إضافة إلى ذلك، واجهت الدراسة صعوبة في تتبع المواقع الدقيقة لبعض الجسور القديمة نتيجة تغير المجاري المائية أو اندثار المعالم عبر الزمن.

### الدراسات السابقة:

- رسالة ماجستير بعنوان **العمارة الدفاعية الإسلامية بمصر تراث بين الماضي والحاضر**، للباحثة هدى مجدي محمد السيد، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، 2011م، تناولت هذه الدراسة الجوانب الدفاعية للمنشآت المعمارية الإسلامية في مصر، ومنها الجسور والقناطر التي شُيدت لأغراض حماية المدن وتأمين المعابر، وركزت على نماذج من العصرين الفاطمي والأيوبي، محللة العلاقة بين التصميم الهندسي للجسور ووظيفتها الدفاعية. وتتشابه مع دراستنا في الاعتراف بالدور الحربي والدفاعي للجسور كعناصر استراتيجية لحماية المدن وتأمين حركة القوات، وكذلك في رصد كيفية استخدام الجسور كنقاط مراقبة وحواجز أمنية، أما أبرز الاختلافات فتتمثل في أن دراسة هدى مجدي ركزت على البعد المعماري والهندسي للجسور كمنشآت دفاعية، بينما ركزت دراستنا على الجسور كشرايين حيوية متعددة الوظائف (حربية،

إدارية، اقتصادية، اجتماعية)، كما أن دراستنا غطت صدر الإسلام، بينما غطت هي العصرين الفاطمي والأيوبي المتأخرين.

- دراسة بعنوان **بناء القناطر والسدود خلال العصر العباسي**، للباحث مبارك جلوي مبارك العزمي، مجلة كلية الآداب بقنا، المجلد 2، العدد 52، 2021م، تُظهر الدراسة أن دوافع بناء القناطر والسدود في العصر العباسي تنوعت لتشمل تنظيم المياه والتحكم في الملاحة، والربط بين ضفتي الأنهار، والتوسع العمراني، وخدمة الزراعة والري، وتسيير الجيوش، وتمييز طرق الحج، وحماية المدن من الأعداء، ومعالجة الكوارث الطبيعية، وتتشابه مع دراستنا في التركيز على تسهيل العبور، وخدمة الحجاج، ودعم الزراعة والتنقل كأغراض حيوية، لكن الاختلاف الجوهرى يكمن في أن العصر العباسي شهد دوافع أكثر تنوعاً وإدارية وتنظيمية مثل قياس مناسيب المياه باستخدام "المسياس" وتسجيلها رسمياً، بينما في صدر الإسلام كانت المنشآت أبسط وأكثر ارتباطاً بالحاجات العسكرية والفتوحات المباشرة، كما أن العباسيين أولوا اهتماماً أكبر ببناء السدود لمعالجة الكوارث الناجمة عن فيضانات الأنهار، وهو ما يبدو أقل وضوحاً في فترة صدر الإسلام.

### مخطط البحث:

ينقسم البحث إلى مقدمة، وثلاثة محاور رئيسية، تليها خاتمة شاملة بأهم النتائج، تناولت المقدمة الإطار النظري للبحث، وأهميته، وأهدافه، ومشكلته، وفجواته البحثية، والمنهج المتبع، والصعوبات التي واجهته، ثم جاء المحور الأول بعنوان: "الجسور في التخطيط الاستراتيجي والحركة الحربية"، وفيه تم تحليل الدور التكتيكي والاستراتيجي للجسور في عمليات الفتح والدفاع، مستشهداً بمعارك مفصلية كمعركة الجسر ومعركة البويب، ودور القادة، في حين جاء المحور الثاني بعنوان: "الجسور كأدوات للسيطرة الإدارية وفرض السلطة"، حيث تم الكشف عن وظائف الجسور في الرقابة، وجباية الضرائب، وتأمين طرق البريد، واستعراض هيبة الدولة، مع تحليل نماذج من السياسات الأموية. أما المحور الثالث فجاء بعنوان: "الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والتقنية للجسور"، وفيه تمت دراسة الجوانب المتعلقة بتمويل وصيانة الجسور، وأثرها في تحفيز التجارة ونشوء الأسواق والتجمعات السكانية، ودورها في تعميم القيم الإسلامية كالعدل

والمنفعة العامة، واختتم البحث بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، تليها قائمة المصادر والمراجع.

### أولاً: الجسور في التخطيط الاستراتيجي والحركة الحربية

يُشكّل تحليل الدور الاستراتيجي للجسور في التخطيط الحربي الإسلامي المبكر مدخلاً أساسياً لفهم العقلية الحربية والإدارية التي حكمت عملية التوسع واستقرار الأراضي المفتوحة، فلم تكن تلك المنشآت مجرد بنى هامشية، بل كانت جزءاً عضوياً من التشكيل الحربي والسياسي، تنبئ عن عمق في التفكير التكتيكي والاستراتيجي يتجاوز مجرد مواجهة العدو في ساحات القتال المباشرة، فقد أدرك القادة الحربيون في صدر الإسلام، منذ اللحظات الأولى للفتوحات خارج الجزيرة العربية، أن السيطرة على المجال الجغرافي تعني بالضرورة السيطرة على مفاتيح حركة العبور فيه، وأهمها الجسور والممرات المائية، فجغرافيا المشرق، بأنهارها الكبرى كالفرات ودجلة والنيل، والعواصم التي نشأت على ضفافها، فرضت واقعاً جديداً على الجيوش القادمة من بيئة صحراوية قلما واجهت مثل تلك العوائق المائية الضخمة. وهذا ما يجعل دراسة تفاعلهم مع ذلك التحدي، وتحويله إلى عنصر قوة، محوراً لفهم نجاحهم الباهر، فقد كانت عملية عبور الجيوش الإسلامية الكبيرة أمام المدن الحصينة أو في عمق الأراضي المعادية تمثل واحدة من أخطر العمليات الحربية، إذ تكون القوات في أضعف حالاتها أثناء العبور، مشتتة ومببئة الحركة، فالجسور تمثل نقاط الضعف الحيوية لأي جيش، وأحد أهم الأهداف الاستراتيجية في الحروب (محمد، 2016)، ومن هنا، فإن السيطرة على معبر آمن لم تكن مجرد مسألة ثانوية، بل كانت مسألة حياة أو موت للجيش بأكمله، وتبرز واقعة معركة الجسر الشهيرة في العام 13هـ (مسكويه، 2000)<sup>(1)</sup>، كدليل على تلك الحقيقة، فقرار القائد أبو عبيد الثقفي بعبور جسر على الفرات لمواجهة الجيش الساساني بقيادة بهمن جاذويه (الطبري، 1967)<sup>(2)</sup>، رغم تحذيرات بعض قادة الفرسان، كان قراراً تكتيكياً خاطئاً كشف عن خطورة الجسر كفخ محتمل، فبعد العبور، أمر أبو عبيد بقطع الجسر ليشحذ همم الجنود بفعل الموت أو النصر، لكن تلك الخطوة قطعت طريق التراجع، وحاصر الفرس الجيش الإسلامي بين النهر والعدو، وكانت الهزيمة الساحقة والاستشهاد الجماعي للقادة نتيجة مباشرة لفقدان السيطرة على تلك النقطة الحيوية (ابن الأثير، 1997)، ورغم مرارة تلك الحادثة أصبحت درساً استراتيجياً عميقاً تم استيعابه بسرعة، فقد أظهرت أن الجسر ليس معبراً محايداً، بل هو مضيق إستراتيجي يمكن أن يتحول إلى مذبح إذا أسيء استخدامه أو فقدت السيطرة عليه، ومنذ تلك اللحظة، بدأ يتشكل وعي حربي أكثر دقة بضرورة تأمين رؤوس الجسور والتحكم الكامل في طرفيها قبل وبعد أي عملية عبور واسعة النطاق، ويمكن تتبع تجليات هذا الوعي الجديد في حملات القائد خالد بن

(1) معركة الجسر: معركة بين الإمبراطورية الفارسية والمسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، في 23 شعبان عام 13هـ، وقد تعرض فيها الجيش العربي لهزيمة كبيرة.

(2) بهمن جاذويه (ويُلقب بـ"ذئب الحاجب"): قائد فارسي أرسله رستم لقتال العرب بعد هزيمتهم في معركة الجسر. قاد جيشاً مجهزاً بـ"براية كسرى" والفيلة، وانتصر على جيش أبي عبيد الثقفي بعد أن عبر العرب النهر.

الوليد (ابن حجر، 1415هـ)<sup>(1)</sup> اللاحقة في العراق، إذ حرص على الاستيلاء على المخاضات (عمر، 2008)<sup>(2)</sup> والجسور أو إنشاء معابر مؤقتة تحت حماية مشددة قبل تنفيذ أي حركة رئيسية، مما ضمن لجيشه حرية المناورة وحفظ خطوط انسحابه، وقد تحولت الدروس المستفادة من حادثة الجسر إلى مبادئ توجيهية في الحملات اللاحقة، ففي فتوح العراق والشام، يلاحظ نمطاً متكرراً من التحرك نحو السيطرة على معابر النهر كمرحلة سابقة ومهيأة لفرض الحصار على المدن أو الدخول في معركة فاصلة، فالسيطرة على الجسر أعطت الجيش الإسلامي مرونة لوجستية لا تقدر بثمن، مكنته من اختيار توقيت المعركة، وإمكانية الانسحاب المرتب إذا لزم الأمر، والأهم من ذلك، ضمان خط إمداد مستمر للقوات الموجودة على الضفة الأخرى، وهذا ما يتجلى بوضوح في فتح مدينة عين التمر (الجميري، 1980)<sup>(3)</sup> على الفرات، حيث كان الاستيلاء على معابر النهر جزءاً من خطة حربية متكاملة لقطع المدينة عن الإمدادات وعزلها (البلاذري، 1988)، كما أن حرص القادة على بناء جسور عائمة أو ثابتة عند الحاجة، كما فعل القائد خالد بن الوليد في أكثر من موضع، يشير إلى فهم عميق لأهمية المبادرة المعمارية في الحرب، فالقدرة على إنشاء جسر سريع كانت تعادل في قيمتها الحربية تحقيق نصر تكتيكي، لأنها تضاعف من قدرة الجيش على المناورة وتضليل العدو، حيث يمكن نقل القوات بسرعة بين الضفتين لمفاجأة الخصم أو تعزيز نقطة ضغط، وهنا، يتحول الجسر من عقبة إلى سلاح هجومي، ولا تقتصر الأمثلة على المشرق، ففي فتح مصر، نجد أن القائد عمرو بن العاص أولى اهتماماً خاصاً بضبط معابر النيل، لا سيما عند حصن بابلون (طقوش، 2003)<sup>(4)</sup>، حيث كان التحكم في النهر وجسوره جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية الحصار التي أدت إلى سقوط الحصن (السيوطي، 1967)، كما أن حملات الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان البحرية ضد القسطنطينية (المنجم، 1408هـ)<sup>(5)</sup> استلزمت تعاوناً وثيقاً بين الأسطول والقوات البرية (طقوش، 2003)، فأدت الجسور العائمة أو الثابتة عند مصبات الأنهار ومخارج الموانئ، دوراً في تأمين نقاط الانطلاق والتزود للأسطول، مما يوسع من مفهوم الدور الحربي للجسر ليشمل العمليات البرمائية المشتركة، بل إن الأهمية الاستراتيجية للجسور تجاوزت لحظة المعركة الفاصلة لتصبح عاملاً محورياً في رسم حدود السيطرة الدائمة واستقرار خطوط الجبهة، ففي المناطق التي شهدت حروباً متطاولة مع الإمبراطورية البيزنطية، كما في حدود الثغور في آسيا الصغرى، أو في مواجهة الثورات الداخلية، أصبحت الجسور نقاط مراقبة وحاميات

(1) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، من أشرف قريش في الجاهلية، أسلم قبل فتح مكة عام 7هـ، ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلمة ومن ارتد من أعراب نجد، ثم سيره إلى العراق عام 12هـ ففتح الحيرة، مات بجمص (في سورية).

(2) المخاضات: جمع مخاضة، وهي المعبر أو موضع العبور وهو مكان ضحل الماء يخوضه الناس مشاة أو ركباناً.

(3) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا، منهما يجلب القصب والتمر إلى سائر البلاد، وهي قديمة افتتحها العرب على يد القائد خالد بن الوليد وكان فتحها عنوة.

(4) حصن بابلون: حصن قديم يقع في منطقة مصر القديمة (الفسطاط)، يُعتقد أن أول من بناه الإمبراطور الروماني تراجان عام 100م، وقيل إن يختصر أو قميير الفارسي هما من أسماه. بقي الاسم حتى اليوم لكنه يُطلق على دير صغير قريب يُعرف بدير بابلون، بينما الحصن نفسه يُسمى الآن قصر الشمع.

(5) القسطنطينية: مدينة عظيمة جلييلة، ولها ثلاثة أبواب وجوانب، جانبان إلى البحر وجانب إلى البر مما يلي الروم، بناها قسطنطين ابن ملك الروم، وذلك أنه أول من دخل في دين النصراني، وأمن بعباسي عليه السلام فأنكر عليه ذلك أهل مملكته رومية، فرحل عنها وبنى القسطنطينية وسماها باسمه، ولم يزل ينتقل من الروم إليها، حتى صارت القاعدة ودار المملكة.

دائمة، فوجود حامية حربية ثابتة عند رأس جسر مهم، يعني السيطرة الفعلية على مدخل إقليم بأكمله، ويمكن تفسير العناية التي أولتها الإدارة الأموية، على وجه الخصوص، لصيانة وحراسة الجسور على الطرق الرئيسية (العمرى، 2009)، مثل تلك المؤدية من دمشق إلى مدن العراق، في هذا الإطار. فالجسر المحروس يصبح بوابة أمنية تفحص حركة القادمين والذاهبين، وتحصّن الدولة من تسلل الجواسيس أو الجماعات المناوئة، وتؤمن طريق البريد السريع (البريد) الذي كان شريان المعلومات للدولة. وهكذا، فإن شبكة الجسور الآمنة كانت تعني شبكة اتصالات واستخبارات فعالة، تمكن السلطة المركزية من ربط أطراف الدولة الشاسعة والتحكم بمعلوماتية أعلى في شؤونها، ويتجسد ذلك في العناية التي أولاها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ابن سعد، 2001) <sup>(1)</sup> لطريق الحج العراقي وتأمين منشأته، بما فيها الجسور، بعد صراعه مع ابن الزبير (الطبري، 1966) <sup>(2)</sup>، إذ كان تأمين ذلك الشريان يعني إحكام السيطرة على العراق وإعادة دمجها الكامل في النسيج الأموي، ولا يمكن فصل ذلك الدور الحربي والأمني عن البعد الاقتصادي الذي عزز من قيمة الجسور كأهداف استراتيجية، فكثير من الجسور الكبرى، كجسر منبج على الفرات، لم تكن تقع فقط على الطرق الحربية، بل كانت تقاطعاً حيوياً لتجارة القوافل بين الشام والجزيرة والعراق (ابن العديم، 1976)، وبالتالي، فإن السيطرة عليها لم تكن تحرم العدو من حركة قواته فحسب، بل كانت تخنق موارده الاقتصادية وتقطع طرق إمداداته التجارية، وهذا يعطي بعداً آخر للحروب والصراعات التي دارت حول السيطرة على تلك المعابر، إذ كان الصراع يدور حول مصادر الثروة والحيوية الاقتصادية للأقاليم، وفي حالات السلم، كانت تلك الجسور نفسها تحقق إيرادات للدولة من خلال الضرائب المفروضة على التجار، مما يجعل استثمار الدولة في بنائها وصيانتها استثماراً مجدياً اقتصادياً وأمنياً معاً، إن التحليل المتأن لمسيرة الفتوحات يكشف أيضاً عن دور الجسور في تسهيل عمليات الاستطلاع والغزو السريع فالكثير من السرايا التي كانت تخرج لاستكشاف مناطق جديدة أو لتنفيذ ضربات خاطفة، كانت تعتمد على معرفة مسبقة بمواقع العبور، فوجود جسر معروف ومؤمن يعني أن السرية يمكنها التحرك بسرعة وخفة، وتنفيذ مهمتها، والعودة قبل أن يتمكن العدو من تجميع قواته، فأعطى ذلك العنصر، الجيش العربي ميزة الحركة السريعة والمفاجأة التي اشتهر بها، وفي المقابل، كان تدمير الجسور أحد تكتيكات الأرض المحروقة الدفاعية التي استخدمها أعداء المسلمين أحياناً لإعاقة التقدم، كما فعل الفرس في بعض مراحل فتح العراق، مما اضطر الجيش العربي إلى إما إنشاء جسور بديلة – وهو ما كان يستغرق وقتاً وجهداً – أو الانتقال إلى مواقع عبور أخرى قد تكون غير ملائمة تكتيكياً، وهنا، تتجلى عبقرية المعمارين المسلمين في قدراتهم على التكيف المعماري السريع، مثل إنشاء جسور من القوارب أو حزم القصب أو الأخشاب، كما حدث في معركة البويب (النويري، 2004) <sup>(3)</sup>، وبالتالي فإن تحليل الشواهد التاريخية يشير إلى تطور فكري

<sup>(1)</sup> عبد الملك بن مروان (ت: 86هـ/705م): الخليفة الأموي الخامس ومؤسس الدولة الأموية الثانية، حكم من 65هـ حتى وفاته عام 86 هـ، وخذ الأمة بعد فتنة ابن الزبير، وأسس نظام الخلافة الوراثية، وعزب الدواوين، وضرب العملة الإسلامية المستقلة.

<sup>(2)</sup> عبد الله بن الزبير (73هـ/692م): فارس قریش وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، بوع بالخلافة عام 64هـ بعد موت يزيد بن معاوية. استمر في حكمه تسع سنين، وقاتل الأمويين حتى استشهد في مكة بعد حصار طويل، وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة.

<sup>(3)</sup> معركة البويب: وقعت بين جيش المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني والجيش الساساني الفارسي بقيادة مهراز بن باذان. انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين عام 13هـ.

وإداري في كيفية التعامل مع الجسور، فبعد المرحلة الأولى التي تم فيها الاستيلاء على الجسور القائمة من العصور السابقة (الرومانية أو الفارسية)، بدأت الدولة العربية، ولاسيما في العصر الأموي، بمشاريع لبناء جسور جديدة تخدم مخططاتها الحربية والاقتصادية الخاصة، وذلك التحول من "المستخدم" إلى "المنشئ" هو علامة على نضج الدولة وانتقالها من طور الفتح إلى طور التأسيس والإعمار، إن قرار بناء جسر في موقع غير مأهول سابقاً، ولكن على طريق حربي أو تجاري مخطط له، هو قرار إستراتيجي بعيد المدى، يعكس رؤية توسعية وربطاً للأقاليم ببعضها بطريقة تخدم مركزية الدولة، ويمكن ملاحظة ذلك التحول في سياسات الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، حيث عمل على تأمين الطرق وربط الأقاليم بعضها ببعض من خلال مشاريع عمرانية شملت صيانة وبناء الجسور، لا لخدمة الحملات العابرة فحسب، بل لترسيخ نمط دائم من التواصل والتحكم المركزي، ومثال ذلك جسر أرجان<sup>(1)</sup> الذي بناه الوالي الحجاج الثقفي (بأشأ، 2017). وهكذا، نجد أن الجسور تحولت من مجرد أهداف حربية أو عقبات يجب تخطيها، إلى أدوات فعالة في يد الدولة لصياغة الجغرافيا السياسية للإمبراطورية الناشئة، مما يجعل دراستها ضرورية لفهم كامل لآليات الحكم والفتح في صدر الإسلام، فالجسر، بهذه الرؤية الشاملة، لم يكن أداة رد فعل للتضاريس، بل كان أداة فاعلة لإعادة تشكيل تلك التضاريس لصالح المشروع الحضاري والسياسي الإسلامي، مما يؤكد أن النجاح الحربي كان يركز على أساس متين من الفكر الإستراتيجي والإداري الذي أولى للبنى المعمارية، ومنها الجسور، الاهتمام الذي تستحقه كشرابيين حقيقية للقوة والنفوذ.

## ثانياً: الجسور كأدوات للسيطرة الإدارية وفرض السلطة

يمثل انتقال الجسر من كونه مجرد أداة حربية تكتيكية إلى مؤسسة دائمة للسلطة السياسية والإدارية، مرحلة حاسمة في فهم تطور الدولة الإسلامية المبكرة من كيان فاتح إلى دولة قائمة على النظام والحكم المؤسسي، فبعد أن تستقر السيطرة على إقليم ما، لا تنتفي الحاجة إلى الجسر، بل تتحول وظيفته لتعكس متطلبات جديدة أكثر تعقيداً تتعلق بإدارة الرقعة الجغرافية الشاسعة، وفرض النظام الداخلي، واستخلاص الموارد، وإظهار هيبة الحكم، وهنا، يتحول الجسر من نقطة ضعف محتملة في ساحة المعركة، ففي معركة الجسر

الأولى(ابن)

1988)، ظهر رمز للسلطة المركزية وقدرتها على تنظيم الحياة اليومية للرعية وضبط حركتها، إن هذا التحليل يكشف عن أن الدولة العربية لم تكن مجرد بنية حربية طارئة، بل كانت تمتلك رؤية إدارية عميقة استطاعت تحويل البنى المعمارية إلى أدوات لترسيخ شرعيتها وتمكين نفوذها، فالجسر ذو الحراسة أصبح علامة مادية على وجود الدولة وانتشار سلطانها إلى أبعد نقاط الجغرافيا، حتى تلك البعيدة عن مراكز الحكم التقليدية، ففرض الرقابة على معبر طبيعي يعني، في حقيقته، فرض سلطة الدولة على حركة المجتمع وتجارته وأفكاره، وهو ما يمثل جوهر الممارسة الإدارية في العصور ما قبل الحديثة، فقد كانت إدارة العبور عبر الجسور وفرض الضرائب عليها أحد أبرز المظاهر الملموسة لسلطة الدولة، وعلى ما

(1) جسر أرجان: يقع في إقليم فارس بإيران كان يتألف من قوس أو عقد واحد بناه الحجاج الثقفي.

يبدو أن تلك الممارسة كانت معروفة في الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية (علي، 2001)، ولكن ما يهم هنا هو كيفية تبني الدولة العربية لهذه المؤسسة وتوظيفها لخدمة اقتصادها، فالضرائب المفروضة، وإن كانت محدودة أحياناً، تساهم في تمويل صيانة الجسر نفسه وتكاليف الحراسة. والأهم من ذلك، ويمكن رؤية تجسيد عملي لهذه الإدارة من خلال ما فعله أبو عبيدة، في فتح الشام إذ اشترط على السكان أن يبنوا الجسور على الأنهار من أموالهم (أبي يوسف، د.ت)، كما أن نظام "الحسبة" الذي أشرف على الأسواق والأوزان، امتد نفوذه ليشمل مراقبة سلامة الجسور ومنع الاحتكار على العبور، مما يدل على تداخل الأدوار الرقابية للدولة لخدمة الصالح العام والمالي معاً (الماوردي، 2006).

ويتجاوز دور الجسر ك بوابة اقتصادية ليصبح نقطة أمنية بالغة الحساسية، فموقع الجسر كمعبر إلزامي يجعله المكان الأمثل لنصب نقاط التفتيش والحواجز الأمنية، وكانت تلك المهمة تقع على عاتق "صاحب الشرطة" التابع للوالي، فمن خلال تلك النقاط، يمكن تتبع حركة الأشخاص والبحث عن الهاربين من العدالة، أو مراقبة تحركات الجماعات المناوئة للسلطة، وفي حقب الاضطراب الداخلي، مثل ثورات الخوارج أو الصراعات بين الأمويين وخصومهم، كانت السيطرة على الجسور الاستراتيجية تعادل السيطرة على شرايين الحياة للإقليم، إذ يمكن عزل مناطق الثورة أو منع وصول المؤن والمقاتلين إليها، ونجد صدى لتلك الأهمية في أحداث الصراع بين الأمويين وعبد الله بن الزبير، إذ كانت السيطرة على طرق الحجاز والعراق وما عليها من معابر مائية تشغل دوراً حاسماً في تحديد موازين القوى (العش، 1985)، فالجسر هنا يتحول من مجرد معبر إلى حاجز أمني قادر على تنفيذ سياسة الحجر والتنضيق عندما تتطلب الظروف السياسية ذلك، وهكذا، فإن التحكم في الجسر يعني التحكم في تدفق المعلومات والأفراد، وهو ما يمنح السلطة المركزية قدرة استباقية على إدارة الأزمات ووأد التمردات في مهدها قبل أن تنتشر، فقد استخدمت الدولة الأموية تلك الآلية بفعالية في مواجهة ثورات الخوارج في مناطق مثل الجزيرة الفراتية، إذ كان عزل مناطق تمركزهم عبر السيطرة على جسور دجلة والفرات يحد من انتشار تمردهم ويخنق قدرتهم على الحركة والتنسيق، كما تجلت وظيفة الجسر كأداة سياسية في كيفية استخدامه في طقوس السلطة واستعراض هيبتها، فبناء جسر جديد أو ترميم جسر قديم مهدم كان من الأعمال العمرانية الكبرى التي يفخر بها الولاة والخلفاء، وتسجل لهم في كتب التاريخ ومعاجم البلدان كأعمال بر وإحسان ومنفعة عامة. إن قرار تخصيص موارد كبيرة من بيت المال لبناء جسر ليس له عائد اقتصادي مباشر سريع، كان يعد استثماراً في شرعية الحاكم، ويمكن النظر إلى الجسور كأدوات للتخطيط الإقليمي وتوجيه التنمية، فقرار إنشاء جسر في موقع معين، بدلاً من موقع آخر، لم يكن محايداً أو عشوائياً، فبناء جسر يربط بين مدينة ناشئة وطريق تجاري رئيسي، على سبيل المثال، كان يعمل على تحفيز نمو تلك المدينة وجذب السكان والتجار إليها، لأنها تصبح محطة عبور مهمة، وبالتالي إعادة تشكيل الخريطة الديموغرافية والاقتصادية للإقليم بما يخدم رؤية السلطة المركزية، وهكذا، فإن سياسة البنى المعمارية، المتمثلة هنا في الجسور، كانت أداة خفية ولكنها قوية لإعادة هيكلة المجال الجغرافي وفقاً للمصالح السياسية والاقتصادية للدولة

الناشئة، وتعزيز مركزية الحكم في المدن الكبرى مثل دمشق<sup>(1)</sup> والكوفة (اليقوبي، 1422هـ)<sup>(2)</sup> والبصرة (القزويني، 1960م)<sup>(3)</sup> على حساب المناطق الهامشية. ويظهر هذا جلياً في سياسة الأمويين بتعزيز دور دمشق كعاصمة، والعناية بالطرق والجسور المؤدية إليها، مما عزز من مركزيتها الاقتصادية والسياسية على حساب مراكز قديمة مثل الكوفة في بعض الحقبة (شيك، 1989)، ويمكن أيضاً ملاحظة الدور الرمزي للجسر في طقوس الولاء السياسي، ففي بعض الأحيان، كان استقبال الولاة الجدد أو تقديم البيعة للخلفاء يتم في مواقع بارزة ومعروفة، وكثيراً ما كانت هذه المواقع تقع عند مداخل المدن أو على معابرها المهمة، فالجسر، بكونه بوابة الإقليم، يصبح المكان المناسب لإظهار الطاعة والولاء من قبل أعيان المنطقة وجموع الناس. وفي المقابل، كان قطع الجسر أو إغلاقه يمكن أن يكون إعلاناً عملياً عن التمرد ورفض سلطة المركز (عبدالرضا، 2022)، وهذا يضيف على الجسر بعداً طقسياً وسياسياً، ومما سبق يتبين أن دراسة إدارة الجسور تكشف عن طبيعة التفاعل بين الدولة والمجتمع في صدر الإسلام، فصيانه الجسور، خاصة الكبيرة منها، كانت تتطلب موارد بشرية ومادية كبيرة. وتشير بعض الروايات إلى أن الخلفاء مثل عمر بن الخطاب (ابن الأثير، 1997)<sup>(4)</sup> كانوا يحرصون على توجيه الأموال من بيت المال لصيانة القناطر والجسور، باعتبارها من مصالح المسلمين العامة. وفي أحيان أخرى، قد تُترك المهمة لأهل المنطقة أنفسهم (ابن عساکر، 1997)، مما يشير إلى درجة من اللامركزية في الإدارة المحلية، وبالتالي، فإن الجسر لم يكن فقط أداة لفرض سلطة الدولة، بل كان أيضاً مجالاً لتجلي تلك السلطة وطريقة اشتغالها في الواقع المعيش للناس، مما يجعله نافذة تحليلية ثرية لفهم تعقيدات النظام السياسي والإداري في عصر التأسيس الإسلامي، فهو يتوسط بين الإرادة العليا للدولة والمصلحة اليومية للرعية، ويجسد في حجره وحراسته وعبرته ذلك العقد الاجتماعي الضمني الذي قامت عليه الدولة العربية، حيث توفر الأمن والخدمات مقابل الولاء والخضوع للنظام.

### ثالثاً: الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والتقنية للجسور

يشكل التحليل العميق للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والتقنية للجسور في صدر الإسلام مدخلاً حاسماً لفهم الطبيعة التكاملية للحضارة الإسلامية الناشئة، وكيفية تحويلها للموارد المادية والبشرية إلى نسيج حيوي يخدم استقرار الدولة وازدهارها. فالجسر، عند تفكيكه إلى عناصره الأساسية، ليس مجرد حجر وطين واخشاب، بل هو نتاج تفاعل معقد بين الإرادة السياسية، والكفاءة المعمارية، والموارد المالية، والاحتياجات المجتمعية، والتراكم المعرفي للحضارات السابقة، فعلى الصعيد التقني المعماري، واجهت الدولة العربية

(1) دمشق: كانت عاصمة الخلافة الأموية افتتحت عام 14هـ في أيام الخليفة عمر بن الخطاب وهي مدينة كثيرة الأنهار والأشجار، تقع في أرض مستوية تحيط بها الجبال، وبها كثير من قبور الصحابة والتابعين والقادة المشاهير.

(2) الكوفة: مدينة على الفرات، مأوها عذب، مصرها سعد بن أبي وقاص في خلافة ابن الخطاب وهي أول مدينة اختطها المسلمون بعد البصرة.

(3) البصرة: مدينة مشهورة بناها المسلمون، وقد مصرت البصرة قبل الكوفة بسنة ونصف، وهي مدينة قرب البحر كثيرة النخيل والأشجار.

(4) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص (ت: 23هـ/644م): ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمر المؤمنين، صحابي جليل شجاع حازم يضرب بعنقه المثل، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وهو أول من وضع التاريخ الهجري ودون الدواوين، وتم في عهده فتح الشام والعراق ومصر والقدس.

الناشئة تحدياً مزدوجاً تمثل بالاستفادة من الإرث المعماري البيزنطي والساساني الموجود، وتطوير حلول جديدة تلبي احتياجاتها الخاصة، فمعظم الجسور التي وجدت في بلاد الشام والعراق ومصر كانت من إنشاء العصور السابقة (علي، 2001)، وقد أدركت الإدارة الإسلامية بسرعة القيمة العملية لتلك البنى، فحرصت على صيانتها وإصلاح ما تهدم منها. وهنا، تبرز قضية الصيانة كدليل على الاستمرارية الإدارية، فصيانة جسر قديم تتطلب فهماً دقيقاً لتقنيات بنائه الأصلية، ومعرفة بمصادر المواد الخام المناسبة، وتوفير عمالة ماهرة قادرة على التنفيذ. وتشير بعض النصوص التاريخية إلى أن الخلفاء والولاة كانوا يحرصون على بناء وصيانة الجسور والقناطر والطرق ومثال ذلك ما قام به عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من بناء القناطر في قرطبة (الحموي، 1995)<sup>(1)</sup> حين ولي الأندلس في عهد عمر بن عبد العزيز (الكتبي، 1974)<sup>(2)</sup>، مما يعني أن تلك المهمة لم تكن عشوائية أو طارئة، بل كانت جزءاً من ميزانية الدولة الدائمة، وهذا يثبت وجود وعي مبكر بأهمية الاستثمار في البنية المعمارية كشرط لاستمرارية تدفق الموارد والاستقرار الأمني، بل إن عملية الصيانة الدورية نفسها كانت تشكل فرصة لتدريب وتوارث الخبرات المعمارية المحلية، مما أسس تدريجياً لكادر من الصانع والمعماريين المسلمين الذين طوروا لاحقاً تقنياتهم الخاصة، كما أن استخدام مواد البناء المحلية، مثل الحجر في بلاد الشام والأجر في العراق، لم يكن مجرد مسألة توفير للنفقات، بل كان يعكس فهماً عميقاً لخصائص البيئة وملاءمة المواد لها، مما يضمن متانة الإنشاء وطول أمده، وكشفت مسألة تمويل الجسور في الحقبة الإسلامية المبكرة عن نظام مالي مرن ومتطور، يعتمد على مصادر تمويل متنوعة تتلاءم مع طبيعة وأهمية كل مشروع، فمنها ما تم تمويله مباشرة من بيت مال المسلمين للمشاريع الاستراتيجية، أو من خراج الإقليم نفسه للمشاريع المحلية، أو حتى من أموال السكان أنفسهم. وقد حكم هذا التنوع مبدأ إداري دقيق قائم على تقدير حجم المنفعة وعدد المستفيدين، مما يعكس فهماً متقدماً لإدارة المال العام وأولويات الإنفاق (الجصاص، 2010).

وعلى الصعيد الاقتصادي، لم تكن فائدة الجسور مقتصرة على تسهيل حركة الجيوش أو تحصيل الضرائب، بل كانت محركات خفية للنمو الاقتصادي الإقليمي، فالجسر الآمن يقلل بشكل كبير من تكاليف النقل والمخاطر المرتبطة بعبور الأنهار بالقوارب أو المخاضات غير الآمنة، مما يشجع على زيادة حجم التجارة وتنوع السلع المتبادلة. ويلاحظ أن العديد من الأسواق الموسمية والدائمة نشأت على مقربة من الجسور المهمة، حيث تتجمع القوافل القادمة من اتجاهات مختلفة في انتظار العبور أو بعد اجتيازها، مما يخلق فرصاً للتبادل التجاري والخدمي، كما أن الجسور سهّلت نقل المنتجات الزراعية من المناطق الريفية إلى المراكز الحضرية بشكل أسرع وأكثر أماناً، مما ساعد على استقرار أسعار الغذاء في المدن وزيادة دخل الفلاحين، ويمكن القول إن شبكة الجسور والطرق الآمنة شكلت العمود الفقري للسوق الإسلامية

(1) قرطبة: أعظم مدينة في الأندلس، تقع على الشاطئ الغربي لنهر الوادي الكبير، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، كان طولها أربعة وعشرين ميلاً.

(2) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم. وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، دس له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به، ومدة خلافته سنتان ونصف.

الواسعة التي بدأت تتشكل، والتي سمحت بانتشار السلع من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ولعل ذلك التحول الاقتصادي كان بدوره يحفز على تطوير الخدمات المساندة حول الجسور، كالخانات وأماكن رعاية الدواب، مما خلق حلقة اقتصادية فضائية من النمو والازدهار، وحول الجسر من نقطة عبور إلى مركز اقتصادي صغير بحد ذاته، أما على المستوى الاجتماعي، فإن تأثير الجسور كان عميقاً ومباشراً، فوجود جسر دائم وآمن شجع على الاستقرار السكاني حول طرفيه، فالقرى التي كانت معزولة بسبب نهر أصبحت متصلة بسهولة بالمراكز الحضرية والأسواق، مما قلل من عزلها وحفز على نموها، وفي بعض الحالات، أدى بناء جسر جديد إلى نشوء تجمعات سكنية جديدة تماماً، حيث ينتقل الناس للعيش بالقرب من هذا المعبر الحيوي للعمل في خدمته أو الاستفادة من الحركة التجارية التي يولدها، كما أن الوظائف الجديدة التي أوجدتها الجسور، من حراس وعمال صيانة وجباة وموظفي خان وباعة متجولين، ساهمت في تنويع البنية المهنية للمجتمع المحلي. والأكثر أهمية، أن الجسر أصبح مكاناً للتفاعل الاجتماعي اليومي، حيث يتبادل الناس الأخبار، وتنتقل الثقافات والعادات، وتذوب الفوارق القبلية الضيقة تدريجياً في هوية إسلامية حضارية أوسع، فالجسر، بهذا المعنى، لم يكن يصل بين ضفتي نهر فقط، بل كان يصل بين مجتمعات وقبائل، ويساهم في صناعة النسيج الاجتماعي الموحد للدولة الإسلامية.

ويظهر التحليل الاجتماعي أيضاً كيف أن الجسور شغلت دوراً في تعميم القيم الإسلامية المتعلقة بالمنفعة العامة والعدل. فحماية الجسر وضمان سلامة العابرين كانت من واجبات الوالي التي يسأل عنها أمام الخليفة. وتوجد روايات عن خلفاء مثل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز يحرصون على سلامة الطرق والجسور ويوصون بها (عطيفة، 1951)، لأن إهمالها يؤدي إلى ظلم الناس وتعطيل مصالحهم، وبالتالي، فإن الجسر الجيد الصيانة يصبح تجسيدا مادياً لـ "العدل" في الحكم، بينما الجسر المهدم يصبح دليلاً على الإهمال والظلم، وذلك الربط بين حالة البنى المعمارية وعدالة الحكام كان راسخاً في الوعي الجمعي، مما جعل من مشاريع الجسور قضايا ذات بعد أخلاقي وسياسي معاً، إضافة إلى أنه لا يمكن إغفال دور الجسور في نشر العلم والمعرفة، إذ أن حركة العلماء والفقهاء والطلاب بين مراكز العلم في البصرة والكوفة ودمشق ومصر وغيرها كانت تعتمد على طرق آمنة ومعابر سليمة فالجسر الذي يسهل نقل البضائع، يسهل أيضاً نقل الأفكار والكتب، ويسرع من حركة التلاقح الفكري بين أقاليم العالم الإسلامي المترامي وهكذا، يتجلى أن التحليل المتكامل للجسور لا يمكن فصله عن قراءة شاملة للحضارة.

### الخاتمة:

تناول البحث الدور المحوري للجسور في صدر الإسلام، متجاوزاً النظرة التقليدية لها كمجرد منشآت معمارية ثانوية، ومقارياً إياها كشرابيين استراتيجيين حيوية ضمننت ديمومة الحركة السياسية والحربية والاقتصادية للدولة الإسلامية الناشئة، فركز المحور الأول على الدور الحربي للجسور، مبيناً تحولها من عقبات طبيعية إلى أسلحة تكتيكية أظهرت معركة الجسر خطورة سوء إدارة العبور، بينما أثبتت الحملات

اللاحقة أن السيطرة عليها أو إنشاءها أصبح جزءاً من التخطيط الاستراتيجي، وتناول المحور الثاني الوظيفة السياسية والإدارية للجسور، حيث تجسدت هبة الدولة من خلال فرض الرقابة والضرائب على العبور، واستخدامها كنقاط تفتيش أمنية وكبوابات لضبط حركة الأفراد والمعلومات، أما المحور الثالث فحل الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والتقنية، فتبين أن الجسور كانت محركات للتغيير إذ قللت تكاليف التجارة، وحفزت ظهور أسواق وتجمعات سكنية جديدة، وساهمت في إذابة العزلة الجغرافية والحدود القبلية

وبعد التحليل المتأني للنصوص التاريخية والجغرافية العربية الإسلامية، يلاحظ أن الجسور في صدر الإسلام كانت أكثر من مجرد بنى تحتية؛ لقد كانت مؤسسات متكاملة تعكس عبقرية الإدارة الإسلامية المبكرة في تحويل التحديات الجغرافية إلى فرص لتعزيز السيطرة والاندماج، وما يثير الإعجاب حقاً هو الانتقال السريع للقيادة الإسلامية من مرحلة "استخدام الجسور القائمة" إلى مرحلة "إنشاء جسور جديدة تخدم رؤيتها التوسعية"، وهو ما يدل على نضج سياسي وإداري غير مسبوق. كما أن دراسة الجسور تقدم منظوراً أعمق لفهم التاريخ الإسلامي، يتجاوز السرديات التقليدية للحروب والخلافات السياسية، للغوص في آليات اشتغال السلطة وتحولات المجتمع والاقتصاد. إن الحضارة الإسلامية لم تُبنِ بالأفكار والمثل فقط، بل أيضاً بالأحجار والجسور التي شكلت شرايين اتصالها الحيوية

### النتائج:

- أثبتت الدراسة أن الجسور في صدر الإسلام لم تكن منشآت معمارية محايدة أو ثانوية، بل كانت أدوات استراتيجية مركزية في المشروع السياسي والحربي للدولة الإسلامية الناشئة، مثلت شرايين حيوية ربطت أجزاء الدولة المترامية الأطراف.
- على المستوى الحربي، تحولت الجسور من عقبات طبيعية إلى أسلحة تكتيكية، وأظهرت الحملات اللاحقة أن السيطرة على الجسور أو إنشاءها أصبح جزءاً عضوياً من التخطيط الاستراتيجي، مما وفر مرونة لوجستية وأمن خطوط الإمداد.
- على المستوى السياسي والإداري، تحولت الجسور إلى مؤسسات مصغرة للسلطة، حيث تجسدت هبة الدولة من خلال فرض الرقابة والضرائب على العبور، واستخدامها كنقاط تفتيش أمنية، وأصبح بناء الجسور وصيانتها دليلاً على عدل الحاكم.
- أكد التحليل الاقتصادي والاجتماعي أن الجسور كانت محركات للتغيير، إذ قللت من تكاليف التجارة، وحفزت ظهور أسواق وتجمعات سكنية جديدة، وساهمت في إذابة العزلة الجغرافية والحدود القبلية، وعملت على تسريع الاندماج الاجتماعي والثقافي.
- أوضحت الدراسة التفاعل الوثيق بين الإرادة السياسية والكفاءة التقنية، وكيفية استيعاب الإدارة الإسلامية للإرث المعماري للحضارات السابقة عبر أنظمة صيانة دورية ممولة من بيت المال.
- كشفت الدراسة أن شبكة الجسور شكلت الهيكل العظمي المادي للحضارة الإسلامية المبكرة، فهي لم تكن قنوات لحركة الجيوش والسلع فقط، بل أيضاً لانتقال الأفكار والعلماء والمعرفة.

- أن دراسة البنى التحتية تقدم منظوراً غنياً لفهم تاريخ الدولة الإسلامية، يتجاوز السرديات التقليدية، ليغوص في آليات اشتغال السلطة وتحولات المجتمع والاقتصاد.

#### المصادر

1. ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ/1232م)، 1997- الكامل في التاريخ. تح: عمر عبد السلام التدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت.
2. ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت: 660هـ/1261م)، 1976م بغية الطلب في تاريخ حلب. تح: سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت.
3. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت: 852هـ/1449م)، ١٤١٥هـ - الإصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.
4. ابن سعد، محمد بن منيع (ت: 230هـ/845م)، 2001- الطبقات الكبرى، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة.
5. ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت: 571هـ/1176م)، الطبعة الأولى. تاريخ مدينة دمشق. دار الفكر، بيروت، لبنان.
6. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: 774هـ/1373م)، ١٩٨٨م - البداية والنهاية. تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
7. أبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد (ت: ١٨٢هـ)، د.ت- الخراج. تح: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
8. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت: 279هـ/892م)، 1988م - فتوح البلدان. الطبعة الأولى، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
9. الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي، ٢٠١٠م - شرح مختصر الطحاوي. الطبعة الأولى، دار البشائر الإسلامية ودار السراج.
10. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: 626هـ/1229م)، ١٩٩٥م - معجم البلدان. الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت.
11. الجُميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، 1980م - الروض المعطار في خبر الأقطار (ت: ٩٠٠هـ). تح: إحسان عباس، الطبعة الثانية، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت.
12. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت: 911هـ/1505م)، 1967م - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

13. الطبري، محمد بن جرير (ت: 310هـ/922م)، 1966م - تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.
14. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت: 682هـ/1283م)، 1960 - آثار البلاد وأخبار العباد، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت.
15. الكتبي، محمد بن شاعر (ت: ٧٦٤هـ/1362م)، 1974 - فوات الوفيات، الطبعة الأولى، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
16. الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود، ٢٠٠٥م - تفسير الماتريدي. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
17. الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب (ت: 450هـ/1058م)، 2006م - الأحكام السلطانية. دار الحديث، القاهرة.
18. مسكويه، أبو علي الرازي (ت: 421هـ/1030م)، 2000م - تجارب الأمم وتعاقب الهمم. تح: أبو القاسم إمامي، الطبعة الثانية، دار سروش، طهران.
19. المنجم، إسحاق بن الحسين (ت: ق ٤هـ)، 1408هـ، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت.
20. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: 733هـ/1333م)، 2004م - نهاية الأرب في فنون الأدب. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
21. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت: 292هـ/905م)، 1422هـ - البلدان، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

## المراجع

1. باشا، أحمد فؤاد، 2017م - بحوث ومراجعات في ترشيد الفكر العلمي. الطبعة الأولى، نيو بوك للنشر والتوزيع، مصر.
2. شيك، روبرت، 1989م - بلاد الشام في العهد الأموي. تر: محمد عدنان البخيت، الطبعة الأولى، الجامعة الأردنية.
3. طقوش، محمد سهيل، 2003م - تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية. الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت.
4. عبدالرضا، أسعد طارش، 2022م - الحراك السياسي في العراق وأثره على الأمن والتنمية. المجلة السياسية الدولية، العدد 53.
5. العش، يوسف، 1985م - الدولة الاموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان. الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق.
6. عطيفة، أبو الفتوح، 1951م - بريطانيا العظمى. مجلة الرسالة، العدد 937.
7. علي، جواد، 2001م - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. الطبعة الرابعة، دار الساقى، بيروت.

8. عمر، أحمد مختار عبد الحميد (ت: ١٤٢٤هـ/ 2003م) ، 2008 - معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت.
9. العمري، أكرم بن ضياء، 2009م - عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين. الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض.
10. محمد، ضياء عبد المحسن، 2016م - الجغرافيا البوليتيكية. الطبعة الأولى، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان.